



أثر الضمير ومفسره في توجيه معنى المتشابه اللفظي في القرآن الكريم

The effect of the pronoun and its interpreter in directing the meaning of the verbal similarity in the Holy Quran

د/ نجاة مشيتوة*، المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميلة، الجزائر، n.mechitoua@centre-univ-mila.dz

د/ سهام سراوي، المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميلة، الجزائر، s.seraoui@centre-univ-mila.dz

تاريخ المقال

النشر: 2026/03/31

القبول: 2026/01/05

الإرسال: 2025/01/31

ملخص البحث

الكلمات المفتاحية

الضمير
مفسر الضمير
المعنى
المتشابه اللفظي

تعدّ مسألة الضمير ومرجعه مسألة مهمة فالمعنى مرتين بهما في كثير من الأحيان، خاصة حين يتعلق الأمر بفهم الآيات القرآنية، وفي هذا الصدد يروم بحثنا الموسوم: "الضمير ومفسره في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأثره في توجيه المعنى" إلى مناقشة قضية اختلاف الضمير ومفسره بين الآية وشبهتها وأثر ذلك في توجيه المعنى، وإحداث الاختلاف الدلالي بين الآيات المتشابهات الألفاظ في القرآن الكريم، وتتجلى أهمية البحث في الكشف عن الدور الذي يؤديه الضمير في تشكيل المعنى العام داخل التركيب، ليتوصل في الأخير إلى تحقيق مجموعة من النتائج منها: أن الضمير يمكن أن يخالف مفسره محملا على المعنى، نحو أن يأتي الضمير مفردا مؤنثا ويعود على الجمع، مما يحدث تنوعا بلاغيا ودلاليا مثيرا.

Abstract

The issue of the pronoun and its reference is an important, as the meaning depends on them in many cases, especially when it comes to understanding Qur'anic verses. In this regard, our research titled: "the pronoun and its interpreter in verbal similarities in the Holy Qur'an and its effect in directing the meaning" aims to discuss the issue of the difference in the pronoun and its interpreter between the verse, and its similarities and the effect of this in directing the meaning, and creating a semantic difference between verses with similar words in the Holy Qur'an. The importance of the research is evident in revealing the role that the pronoun plays in shaping the general meaning within the composition, to finally reach a set of results, including: that the pronoun can contradict it is interpreted based on the meaning, which creates an exciting rhetorical and semantic diversity.

Keywords

personal pronoun
interpreter of
pronoun
the meaning
verbal similarity

1. مقدمة:

تنوعت الأساليب التعبيرية في القرآن الكريم بين الخطاب والسرود الملزم للقصص، ما يعني توظيف الضمير وعائده لإبراز العلاقات القائمة بين الجمل ومنه إبراز العلاقات الدلالية بين أطراف النص، واللجوء إلى الضمير مظهر من مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم، وفي علم المتشابه اللفظي في القرآن الكريم كثيرا ما نجد الضمائر تختلف بين الآية وشبهتها من حيث اختلاف نوع الضمير مع مرجعه، لذلك جاء هذا البحث الموسوم: " الضمير ومفسره في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأثره في توجيه المعنى " ليبين مفسر الضمير في بعض الآيات المتشابهات الألفاظ، سعيا للإجابة على جملة من الأسئلة منها:

_ كيف للضمير إذا تغير أن يحدث تغيرا في معنى المتشابه اللفظي في القرآن الكريم؟

_ ما أهم مظاهر التغيير التي تطرأ على الضمير ومفسره؟

وتهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن دور الضمير في تشكيل المعنى، وبيان العلاقة بين الضمير ومفسره؛ كالعدد والجنس والبروز والاستتار، وما يطرأ عليها من تغيرات تؤدي إلى إحداث فرق دلالي؛ من خلال استخراج بعض الآيات المتشابهات الألفاظ والتي تختلف فيما بينها من حيث جنس الضمير، أو عدده، أو بروزه واستتاره، ثم البحث عن مفسر الضمير للتأكد من مطابقة الضمير لمفسره أو مخالفته له، وبعدها السعي إلى توجيه الآية بالاعتماد على كتب التفسير ومنه تحديد المعنى العام للآية وبيان اختلاف معناها عن معنى شبهتها في اللفظ انطلاقا من تلك الجزيئة الصغيرة (الضمير). فالبحث في قضية الضمير ومفسره تحتاج إلى اجتهاد وتدبر لما

يكتسبه من أهمية كبيرة في كشف الدلالة والوصول إلى المعنى.

وقد فرضت علينا طبيعة الموضوع اعتماد المنهج الوصفي التحليلي الذي يتناسب مع هذه الدراسة بغرض وصف وتحليل مظاهر التغير في الضمير ومرجعه بين الآيات المتشابهات، وعرض بعض آراء علماء اللغة والتوجيه فيه، للوصول إلى تحديد المعنى العام للآية.

2. الضمير ومفسره والمتشابه اللفظي

يعد العنوان البوابة التي نلج من خلالها أي موضوع؛ فهو يقدم فكرة شاملة له لذلك لابد من الوقوف عند مصطلحاته وتعريفها، وهو ما سيأتي في هذا المبحث، الذي يتناول العلاقة بين الضمير ومفسره، وإبراز أهميتهما في المطلب الأول، بينما يتناول المطلب الثاني موضوع المتشابه اللفظي في القرآن الكريم.

1.2. الضمير ومفسره

عني موضوع الضمير وعائده باهتمام الكثير من علماء اللغة، وقدموا لهما تعريفات وتسميات كثيرة، لذلك ليست غایتنا من هذا البحث تعريف الضمير ولا عائده، وإنما نكتفي بالإشارة إلى ذلك لننتقل إلى بيان أهميتهما والعلاقة بينهما: يحمل الضمير في مفهومه اللغوي معنى السر والخفاء ابن منظور (دت، ص 2606، 2607)، وهذا ما يربطه بمعناه الاصطلاحي؛ الذي يفيد بأنه ما دلّ على مسعى غير معين مشعرا بحضوره أو بغيبته الأندلسي (1998، ص 128)؛ فالمشعر بالحضور: ما دلّ على المتكلم أو المخاطب، وأما المشعر بالغيبه: ما عداهما مالك (1977، ص 142). وهذه الضمائر رغم أنها تعدّ من المعارف إلا أنها لا تخلو من الإبهام والغموض، سواء كان ذلك بالنسبة لضمائر المتكلم، والمخاطب، أو الغائب، لذلك لا بد لها من شيء يزيل إبهامها ويفسر

غموضها، وبالنسبة للمتكلم والمخاطب فيفسرهما وجود صاحبها وقت الكلام؛ لأنه حاضر يتكلم، أو حاضر يتلقى الخطاب، أما ضمير الغائب فصاحبه غير موجود وغير معروف، ولا بد له من قرينة تفسره، وتوضحه؛ وهذه القرينة هي "المفسر"، أو "مرجع الضمير"، الذي يكون في الأصل قبل الضمير ومطابقا له من حيث الجنس والعدد وحسن(دت، ص 255)، ونحو ذلك من الصور التي تقتضي المطابقة كالتى بين الصفة والموصوف والمبتدأ والخبر.

وحاجة كل من الضمير ومفسره للآخر تجعل العلاقة بينهما قوية، إذ لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، كل ذلك يجعل من الضمير ومفسره يكتسبان أهمية كبيرة لا تقل عن باقي عناصر التركيب، فهذه الظاهرة النحوية تساعد على رفع الالتباس عند الكلام إذ يؤتى بالضمير لتأكيد أن المراد هو المذكور الأول بعينه (وهو عائد الضمير)؛ نحو: جاءني زيد وإياه ضربت الاستريادي (1996، ص401)، كما يبين الضمير صفات مفسره فإذا قلت: هو؛ فمعناه أن هذا الاسم في حالة غياب، وأنه مذكر وليس مؤنث، وأنه مفرد وليس جمع، والضمير ضرب من الإيجاز والاختصار إذ هو مجرد كلمة صغيرة الحجم، يمكن لها أن تنوب عن كلمات كبيرة الحجم، كثيرة الحروف، أو يصعب الإتيان بها، وإذا تحقق يصبح ضربا من التكرار.

2.2. المتشابه اللفظي

اهتم العلماء على اختلاف توجهاتهم بدراسة القرآن الكريم والبحث فيه لاستنباط الأحكام الشرعية والنحوية والبلاغية وغيرها، فهو المصدر الأول للاحتجاج لما يحويه من الفصاحة والبلاغة والبيان، والمراد بالمتشابه اللفظي هو: الآيات التي تكررت في القرآن الكريم أو التي يشبه بعضها بعضا من حيث الألفاظ، وبنية الكلمات وصياغة الجمل والتراكيب، والتي وقع في بعضها

زيادة أو نقصان، تعريف أو تنكير، تقديم أو تأخير، أو إبدال حرف بآخر أو كلمة بأخرى، أو من حيث الجمع والإفراد والإيجاز والإطناب. ويرد هذا النوع في قصص القرآن لأنها كثيرا ما تتكرر في مواضع مختلفة وسور متعددة الكوفي(1993، ص845).

3. دور الضمير ومفسره في توجيه المعنى في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم

من خلال ما سبق اتضح لنا جليا أهمية معرفة مرجع الضمير أو مفسره لما يكتسبه من أهمية في تكوين وتحديد المعنى في الكلام بصفة عامة، وكلام الله بصفة خاصة حتى يتسنى لنا فهم معانيه، لذلك جاء هذا المبحث ليتناول بالدراسة والتحليل مجموعة من القضايا المتعلقة بالضمير ومفسره في نماذج مختارة من الآيات المتشابهة الألفاظ في القرآن الكريم.

3.1. التذكير والتأنيث

في هذا المطلب نتطرق إلى موضوع تذكير وتأنيث الضمير وأثر ذلك في توجيه المعنى من خلال تحليل بعض الآيات المتشابهات الألفاظ في القرآن الكريم التي جاء في بعضها الضمير مذكرا وجاء في شبيبتها مؤنثا:

أ- جاء في قوله تعالى: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران49]، وجاء في قوله أيضا: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ [المائدة110]: الشاهد: مجيء الضمير المتصل مذكرا في قوله تعالى (فيه)، ومجيئه مؤنثا في قوله (فيها)، يخبرنا الله عز وجل عن خلق عيسى عليه السلام للطير من الطين بإذن الله - لكن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: ما سبب اختلاف جنس الضمير بين الآيتين؟

إذ يرى الإسكافي أن الضمير المذكر في آية آل عمران يعود على ما تقوم به حجة النبي عيسى عليه السلام على بني

الضمير بين الآيتين، كما أن ما في آل عمران إخبار قبل حدوث الفعل لذلك وحده، أما ما في المائدة فهو خطاب من الله تعالى يوم القيامة حين يكون قد تقدم من النبي عيسى عليه السلام حدوث الفعل مرات لذلك جمعه، والطير صالح للمفرد كما هو صالح للجمع الكرماي(1986، ص 45).

ب-ورد في قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل66]، وورد في قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون21]: الشاهد: ضمير الغائب في (بطونه) في الآية الأولى مذكر، وفي (بطونها) في الآية الثانية مؤنث.

من الملاحظ أن الضمير المتصل بكلمة (بطون) في كلتا الآيتين يعود على الأنعام، لكن الاختلاف الوارد هو كون الضمير في آية سورة النحل جاء مذكرا، بينما الضمير في آية سورة المؤمنين جاء مؤنثا، فما السر وراء هذا الاختلاف؟ ورد في كتب النحو أنه يؤتى بالضمير المذكر للدلالة على القلة، ويؤتى بالضمير المؤنث للدلالة على الكثرة؛ فقد جاء في "شرح المفصل": «وقولهم جمالة في جمع جمال بمعنى جماعة جمالة، وكذلك بغالة وحمارة وشاربة وواردة وسالبة، ومن ذلك البصرية والكوفية والمروانية» بنيعيش(دت، ص99)، ثم قال فيها الشارح إن هذه الصفات فيها ضرب من النسب حتى وإن لم تدخلها ياء النسب، إذ قيل لصاحب الجمال جمال، وقيل لصاحب البغال بغال؛ وهو الذي يعمل عليها وإن لم يكن مالكةا، وهو كثير فيما كان صنعة تكثر معالجتها، لأن فعال للتكثير؛ فإذا أرادوا الجمع ألحقوا بها التاء فقالوا: جمالة وبغالة وحمارة، ونجد أنهم أنثوا لفظه على إرادة الجماعة لأن الجماعة مؤنثة، وكأنهم قالوا: جماعة جمالة وبغالة وحمارة، وكذلك بالنسبة للمنسوب الذي

إسرائيل؛ وهو أول ما يصور الطين على هيئة الطير فيكون واحدا تلزم به الحجة بالتذكير أولى به لأنه مفرد، فعيسى عليه السلام فيما أخبرنا به عز وجل أنه قد عد الآيات على بني إسرائيل ومن بين هذه الآيات: أنه يأخذ الطين ويصوره على صورة الطير، ثم ينفخ فيه فيصير طيرا بإذن الله، مكسوا بالريش واللحم المركب على العظم، فكان القصد ما تقوم به هذه الآية عليهم، بينما يعود الضمير المؤنث في آية المائدة على ما عدد الله من النعم والآيات والمعجزات على سيدنا عيسى عليه السلام؛ فقد قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَذْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى الْوَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾، والعبرة من ذلك ليست ما تقوم به حجة ما على بني إسرائيل، وإنما العبرة في جميع ما أذن به الله أن يتحقق على يدي نبيه عيسى عليه السلام دلالة على صدقه وصدق نبوته، وتلك النعم جمع والجمع أولى به التأنيث الإسكافي(دت، ص372، 375).

وقيل إن الضمير في (فيه) يعود للهيئة بمعنى المهيأ، كالخلق بمعنى المخلوق، أو يعود للكاف التي بمعنى مثل؛ أي فينفخ في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير، أما (تنفخ فيها) بمعنى تنفخ في الهيئة التي كان يخلقها عيسى عليه السلام، ولذلك قال (فتكون) أي فتكون الهيئة طيراالهمداني(2006، ص526).

أما الكرمانى فقد ذهب إلى أن الضمير المذكر في سورة آل عمران يعود على: الطير، أو على الطين، والضمير المؤنث في المائدة يعود على الهيئة، وهذا هو جواب التذكير والتأنيث، لذا فلا بد أن الضمير المذكور في (فيه) يعود على الطير المذكر، أما الضمير المؤنث في (فيها) فيعود على الهيئة المؤنثة، وهذا هو سبب الاختلاف في جنس

ورد الضمير في (فيها) في آية سورة الأنبياء مؤنثا، وورد في (فيه) في آية سورة التحريم مذكر، فما هو السبب في تأنيث الضمير في الآية الأولى، وتذكيره في الآية الأخرى؟

إذ الضمير المؤنث في آية الأنبياء يعود على الاسم الموصول (التي) أي مريم بنت عمران، فالمقصود في هذه السورة ذكرها وبيان ما آل إليه حالها حتى ظهر فيها ابنها، وذلك لا يتحقق إلا بالنفخ في حملها وتحملها إلى ولادتها، وعلى هذا فالنفخ المذكور في آية سورة الأنبياء يعمها كلها فلذلك اختصت بالتأنيث، أما الضمير المذكر في آية التحريم فيعود على فرجها (موضع النفخ) وهو مذكر، فالنفخ المذكور في هذه الآية يخص جزءا منها فقط، ولذلك خصت بالذكر الكرماي (1986، ص 131). فقد جرت العادة أن المرأة لا تحمل إلا من فحل، وأن الولد لا يولد من غير أب؛ فحين كان القصد من آية الأنبياء التعجب من حالة مريم العذراء وابنها، وأنها صارت حاملا بالنفخ. ردّ الضمير إلى جملتها (كلها) فالنفخ في فرجها يعني النفخ فيها جملة، مما أوجب القصد إلى وصفها كلها دون جزء منها، فكان قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾، أولى وأبلغ في هذا الموضع من قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾. أما ما في آية التحريم فلم يكن القصد إلى وصفها والتعجب من حالها وحملها وابنها كما هو الحال في آية الأنبياء؛ لذلك اختلف التعبيران الإسكافي (د ت، ص 912، 913).

وهذا التوجيه استفيد مما يدل عليه الضمير المؤنث من الكثرة، وما يدل عليه الضمير المذكر من القلة. ما يعني أن «قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ أمدح من قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾؛ لأن النفخة عمت شخصها، بخلاف قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ فإنها خصت جزءا. وقد ناسب كل تعبير موضعه» السمرائي (2019، ص 82، 183).

2.3. العدد

قد يؤنق على إرادة الجماعة نحو: البصرية والكوفية والمروانية، كما قيل نسبة وعلامة للمبالغة حيث أرادوا التكثير، فدخلها معنى الجمع على إرادة الجماعة. فالجمع إذن يكسب الاسم تأنيثا وتأنيثه ليس حقيقيا فهو تأنيث للاسم وليس تأنيث للمعنى بن يعيش (د ت، ص 99، 103).

ومعنى هذا أن الأنعام المقصودة في آية سورة النحل قليلة لأن الضمير في (بطونه) مذكر، بينما الأنعام المذكورة في آية سورة المؤمنين كثيرة لأن الضمير في (بطونها) مؤنث.

وقد ذهب الكرماي إلى توجيه الآيتين بناء على ما ذكرنا من إفادة الضمير المذكر للقلة والضمير المؤنث للكثرة؛ فالضمير في آية سورة النحل يعود على البعض (بعض الأنعام) وهو الإناث؛ لأن اللب لا يخرج من جميع الحيوانات وإنما يخرج من إناثها فقط، فيصبح تقدير الآية: إن لكم في بعض الأنعام، على خلاف ما في سورة المؤمنين فإن الضمير المؤنث بها يعود على كل الأنعام ولا يقتصر على بعضها، لأن الحديث فيها على منافع الأنعام الكثيرة، وليس اللب فقط، قال تعالى: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (21) وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون 21_22] الكرماي (1986، ص 114)، وهناك توجيه آخر لها وهو: أن الضمير المذكر في آية سورة النحل أريد به الجنس، أما تأنيث الضمير في آية سورة المؤمنين جاء لمناسبة تأنيثه للكلمات التي بعدها: (فيها)، و(منها)، و(عليها) الغرناطي (2019، ص 302).

ت- جاء في قوله عز وجل: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرَجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء 91]، وجاء في قوله أيضا: ﴿وَمَرْيَمُ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْتَ فَرَجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتُ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم 12]:

نحاول في هذه المطلب إظهار العلة من مجيء الضمير في الآية بصيغة الجمع، ومجيئه في شبهتها بصيغة المفرد عن طريق استقصاء آراء النحاة والمفسرين:

أ- جاء في قوله تعالى: ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [يونس 83]، وقوله أيضا: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ [يونس 75]: الشاهد: الضمير المتصل في (ملئهم) جاء بالجمع، وفي (ملئته) جاء بالواحد.

قيل إن ضمير الجمع في الآية الأولى (ملئهم) يعود إلى الذرية أو القوم؛ فتصبح الآية بمعنى: (إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملأ الذرية)، أو تقديرها: (إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملأ القوم)، أما الضمير المفرد في الآية الثانية فيعود إلى فرعون؛ فيصبح تقدير الآية: (ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملأ فرعون) (الكرمالي 1986، ص 96).

ب- ورد في قوله جل وعلا: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [هود 14]، وقوله: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص 50]: ورد الضمير في (لكم) بالجمع، وفي (لك) بالإنفراد.

للسائل أن يسأل: لماذا جمع الخطاب في آية سورة هود في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا ﴾ [هود 14]، ووحده في آية سورة القصص في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ ﴾ [القصص 50] ؟

والجواب على ذلك هو: أن الخطاب في آية هود موجه للكفار أي (لكم أنتم)، والفعل (يستجيبوا) يعود إلى (من استطعتم) في قوله عز وجل في الآية التي قبلها: ﴿ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود 13]، أي معنى الآية: فإن لم يستجب لكم من دعوتكم من دون الله. أما الخطاب في آية القصص فموجه للنبي صلى الله عليه وسلم أي (لك أنت)، والفعل (يستجيبوا) يعود إلى الكفار، ومعنى الآية: فإن لم يستجب لك الكفار، وهذا هو سبب اختلاف العدد في ضمير المخاطب بين الآيتين. (الكرمالي 1986، ص 96).

ت- جاء في قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر 74]، وجاء في قوله أيضا: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴾ [هود 82]: علة مجيء الضمير في (عليهم) بالجمع، ومجيئه في (عليها) مفردا مؤنثا.

قيل إن الضمير في (عليهم) يعود على أهل القرية، أو على من شدد من أهل القرية، وقال الكرماني إن ضمير الجمع في (عليهم) يعود على أول القصة في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّ أُرْسُلَنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ [الحجر 58]، فقال فيهم: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر 74] (الكرمالي 1986، ص 108، 109).

أما الضمير المفرد المؤنث في آية هود فيعود على القرية، والمراد أهل القرية لأن الضمير المؤنث يفيد الكثرة فقد « يأتي ضمير الغائبين كضمير الغائبة كثيرا لتأولهم بجماعة، وكضمير الغائب قليلا لتأولهم بواحد يفهم الجمع، أو لسد واحد مسددهم، ويعامل بذلك ضمير الاثنين وضمير الإناث بعد أفعل التفضيل كثيرا، ودونه قليلا » (الأندلسي 1998، ص 147)، ولما لم يتقدم في سورة هود ما تقدم في سورة الحجر من ذكر القوم

أما الغرناطي فقد خالفه في هذا التوجيه، وذهب إلى أن ثبوت الضمير المنفصل (هم) في آية النحل راجع إلى من ذكرهم في أي سابقة هي:

_ قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا زَرَئْنَا هُمْ ﴾ [النحل56]

_ وقوله: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ ﴾ [النحل58]

_ وقوله: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل60]

_ وقوله: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل62]

وبذلك فقولته تعالى: ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل72] راجع إلى المذكورين في هذه الآي وليس إلى ما اتصل به من قوله عز وجل: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَزَرَعَ لَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ [النحل72]؛ فحين كان قوله: ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ راجع إلى ما بُعد ذكره في الآيات السابقة، أتى بضمير الغائبين الذي يوحى بذلك البعد، أما في سورة العنكبوت فالمعنيون بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ [العنكبوت67] هم نفسهم المرادون من قوله: ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [العنكبوت67] فلم يحتج فيها إلى إثبات الضمير كما في آية النحل فأضمره الغرناطي (2019، ص303، 304).

ب-ورد في قوله تعالى: ﴿ وَأَبْصَرُهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ [الصافات175]، وورد في قوله أيضا: ﴿ وَأَبْصَرُ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ [الصافات179]: ذكر الضمير في قوله (أبصرهم)، وحذفه في قوله (أبصر).

تكررت الآية لكن حذف من الثانية ضمير الغائبين، وذلك لأنه لما نزل: ﴿ وَأَبْصَرُهُمْ ﴾ قالوا: متى هذا الوعد؟ فأنزل تعالى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الصافات176]، تهديدا لهم، وقيل أن الأولى في الدنيا والثانية في الآخرة على التقدير: أبصر ما ينالهم فسوف يبصرون ذلك، فحذف

المجرمين وهم قوم لوط الموصوفين بالإجرام الموجب لهلاكهم ف قيل: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سَجِيلٍ ﴾ [الحجر74]، فأغنى ذلك عن ذكر المهلكين المقصودين بالعذاب، ويمثله ما في سورة الذاريات من قوله تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّ أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾ [الذاريات32_33]، فقد اكتفي في آية هود بضمير القرية ف قيل: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ [هود82]، وهكذا ورد كل ضمير بما يناسب الغرناطي (2019، ص262، 263).

3.3. الإظهار والإضمار

يتناول هذا المطلب الضمير البارز والضمير المستتر ومفسرهما في المتشابه اللفظي، وبيان عمل ظاهرة الذكر والحذف على توجيه المعنى:

أ-جاء في قوله عز وجل: ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل72]، وجاء في قوله أيضا: ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [العنكبوت67]:الشاهد: إظهار الضمير (هم) في آية النحل وإضماره في آية العنكبوت.

والسبب عند الكرمانى أن ما في سورة النحل اتصل بقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَزَرَئَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ [النحل72] وهو بالخطاب، فقد انتقل من الخطاب إلى الغيبة فقال: ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل72]، حتى لا تلتبس الغيبة بالخطاب، في حين أن ما في العنكبوت اتصل بآيات مستمرة كلها على الغيبة فيها قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَفَتُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [العنكبوت67] فلم يحتج إلى تقييده بضمير الغيبة الكرمانى (1986، ص114).

من الثاني المفعول اكتفاء بذكره في الأول الكرماي(1986، ص 164).

والآية الأولى نزلت بعدما بشر الله عباده في قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ [الصفات171_173] بأنهم هم المنتصرون إن حاربوا أعداء الله بأمر منه تعالى، ثم قال عز وجل: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ [الصفات174]؛ أي أعرض عن محاربتهم حتى الوقت الذي يأذن لك الله فيه وهو الوقت الذي ينصرك فيه عليهم، وقال: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ [الصفات175]؛ أي أنظر إلى حالهم حين تنصر عليهم، وسوف يبصرون قهركم لهم. وأما حذف (هم) في الآية الثانية فذلك لذكرها في الأولى الإسكافي(د ت، ص 1096، 1097).

ت-جاء في قوله جل وعلا: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام25]، وجاء في قوله أيضا: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس42]:الشاهد أن الضمير المتصل بالفعل (يستمعون) جاء ظاهرا في آية يونس، ومضمرا في آية الأنعام.

جاء في كتب النحو أن (من) تحمل معنى الجمع على لفظ المفرد المذكر، وكذلك تحمل معنى الاثنان، لذلك في استعمالها يجوز مراعاة لفظها (الإفراد والتذكير)، ويجوز مراعاة معناها؛ فقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام25] قد حمل على اللفظ المفرد المذكر، بينما قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس42] فقد حُمِلَ على المعنى (الجمع)المبرد(، 1994، ص 252، 253). فما هو سبب الحمل على اللفظ في آية الأنعام؟ وما هو سبب الحمل على المعنى في آية يونس؟

حمل الضمير في آية الأنعام على لفظ (من) المفرد لأن ما في هذه السورة نزل في: أبي سفيان، والنضر بن الحارث، وعتبة، وشيبة، وأمّية وأبي خلف، وهم ليسوا بكثرة ما في يونس، فالمراد في يونس جميع الكفار، أما في يونس فقد حمّله على معنى (من) حتى يوافق اللفظ المعنى وذلك لكثرتهم الكرماي(1986، ص 61)

وهناك رأي آخر في الحمل على اللفظ في الأنعام والحمل على المعنى في يونس؛ وهو أنه في آية الأنعام جاء ما يبين أن المستمعين جماعة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام25]، فبين أن المراد جماعة وأمن اللبس وارتفع الاحتمال، ولهذا جاء بصيغة الإفراد. أما في يونس فلم يأت بها ما يبين أن المستمعين جماعة، ولذلك جاء الفعل مسندا إلى الجمع وحمل الضمير على معنى (من) حتى يرتفع اللبس ولا يتوهم أن المستمع واحد الغرناطي(2016، ص 153).

5. خاتمة

لم تكن الغاية من هذا البحث دراسة الضمير، فقد فعل ذلك الكثير ممن سبقنا، وإنما كانت الغاية منه عرض أحواله من تذكير وتأنيث، إفراد وجمع، بروز واستتار، وبيان دلالات هذه الأحوال، وأثرها في توجيه معنى المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، لنتوصل في الأخير إلى تحقيق مجموعة من النتائج منها:

1. اختلاف الضمير معناه اختلاف عائده وبالتالي اختلاف المعنى.
2. يحمل الضمير على اللفظ تارة، ويحمل على المعنى تارة أخرى.

3. يمكن للضمير أن يخالف مفسّره، رغم أن الأصل في العربية أن يدل كل لفظ على ما وضع له، فالمفرد يدل على المفرد والمثنى يدل على المثنى والجمع يدل على الجمع، لكن يمكن أن يكون الضمير مؤنثا ويعود على الجمع، ويكون مما يحدث تنوعا بلاغيا مثيرا.
 4. من أهمية الضمائر: تبين صفات الاسم الذي تنوب عنه: فإذا قلت هو، فمعناه أن هذا الاسم في حالة غياب، وأنه مذكر وليس مؤنث، وأنه مفرد وليس جمع.
 5. الجمع يكسب الاسم تأنيثا وتأنيثه ليس حقيقيا فهو تأنيثٌ للاسم وليس تأنيثا للمعنى.
- المصادر والمراجع:
- القرآن الكريم
- 1- فضل صالح السمرائي. (2019). من أسرار البيان القرآني. لبنان: دار ابن كثير.
 - 2- موافق الدين بن يعيش. (د ت). شرح المفصل. مصر: إدارة الطباعة المنيرية.
 - 3- ابن الزبير الغرناطي. (2019). ملاك التأويل. لبنان: دار الكتب العلمية.
 - 4- ابن منظور. (بلا تاريخ). لسان العرب. مصر: دار المعارف.
 - 5- أبو البقاء الكوفي. (1993). الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. لبنان: مؤسسة الرسالة.
 - 6- أبو حيان الأندلسي. (1998). التذليل والتكميل في شرح كتاب التنسيهل. سوريا: دار القلم.
 - 7- الخطيب الإسكافي. (د ت). درة التنزيل وغرة الأويل.

- 8- الرضي الاستريادي. (1996). شرح الرضي على الكافية. ليبيا.
- 9- الكرماي. (1986). البرهان في توجيه المتشابه. لبنان: دار الكتب العلمية.
- 10- المبرد. (1994). المقتضب. القاهرة، مصر: وزارة الأوقاف المصرية.
- 11- لمنتجب الهمداني. (2006). الفريد في إعراب القرآن المجيد. المملكة العربية السعودية: دار الزمان.
- 12- جمال الدين محمد بن مالك. (1977). شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ. العراق.
- 13- عباس حسن. (د ت). النحو الوافي. مصر: دار المعارف.